

عمل الكاتب، الكاتب يعمل

الميلودي شغموم

عتبة

بما أن الأمر يتعلق بعمل الكاتب فإنني سأبدأ بالحديث عن طبيعة هذا العمل وشروطه وأدواته أي العمل كصناعة، أو حرفة، تحتاج إلى استعداد، إلى اكتساب، ومهارة، إلى وقت يخصص لها، ثم إلى قضاء تمارس فيه وإلى أدوات تنجز بواسطتها، إضافة إلى سوق و متلقين في ظروف ثقافية واجتماعية معينة وسأحاول أن ألتزم، بطبيعة الحال، في هذا الكلام ، بتجربتي المتواضعة في الكتابة. أؤكد، منذ الآن، على أن الأدب حرفتي الثانية و أكتفي بالإشارة إلى أن هذه الحرفة لم توفر لي شيئاً من الدخل المالي فقط ولكنها مكتسبي، منذ صغري، من الحصول على ما هو أهم، أي على مكانة معنوية عند زملائي، خاصة أبناء الأعيان، وستصبح امتيازاً فيما بعدا لدى الأساتذة والإدارة، وشرائح أخرى من المجتمع، فكيف أنقطع عنها وأتخلى عن هذه المكانة؟ كثير من المشاكل والصعوبات، التي تعرضت لها في طفولتي، حلت، بفضلها، وبدونها كنت سأجدي في الشارع أو الحبس مرات عديدة!

كان بإمكانني أن أتخرج من كلية العلوم لكنني تخرجت من كلية الآداب ولم أندم علي هذا في أي يوم من الأيام لأنه كان اختياري الأصلي ولأن الفلسفة عوضتني عن جانب من العلوم، أو الفكر، كنت أعشقه مثلما أعشق الأدب. وقد كان وراء ذلك عقبات كثيرة، ولا أقول تضحيات، لأننا في الحياة مضطرون دائما، وبغير قليل من الألم والخسارة، إلى اختيار شئ على حساب أشياء أخرى، وبعبارة الفلاسفة، كل إثبات نفي: الأبله وحده لا يعرف كيف يعزل ويختار. لقد امتهنت تدريس الفرنسية، في بداية حياتي العملية، بالابتدائي والإعدادي، ثم الفلسفة، بالثانوي والعالي ولكنني امتهنت الأدب كذلك، ليس بمعنى أنه مصدر رزق، كالتعليم ولكن بمعنى أن أخلص لروحه المهنية بقدر ما أخلص للتدريس: الاحتراف ليس دائما مصدرا للمال والأهم فيه هو أنه مورد ثروة معنوية؛ كل ما نخلص له ونرعاه يعطينا ثمرة ما، طال الزمن أو قصر: كان بإمكانني أن أنجح في وظيفة تدر الكثير من المال ولكنني فضلت التعليم براتب متواضع كما اخترت الأدب غير راغب في أجر!

1 - الكتابة حرفة:

لم تكن الرغبة في التأليف الأدبي لدي، ومنذ البداية، طالبا لتجزية الوقت، أو هواية. كنت أومن، على الأقل وأنا في الإعدادي، أنني سأكتب الأدب وأدرس الفلسفة ولكنني، في الحقيقة، اكتشفت ذلك وأنا لا أزال بالابتدائي، اكتشفت أن "الأدب"، خاصة المكتوب بلغة أجنبية، يمكن أن يكون مصدر قوت: كنت أسهر كل ليلة جمعة، أحرر ، بالفرنسية، من عشرة إلى خمسة عشر إنشاء مختلفا، أصف مثلا، نزهة عائلية، أو زيارة إلى السوق، أو رحلة إلى البحر أو... أي موضوع من تلك الموضوعات السخيفة التي كان يطلب منا إنجازها بالفرنسية (ومن نماذجها كذلك: بابا يقرأ الجريدة، قرب المدفأة، ماما تعد حبيكة، أو تريكو، بينما كاترين تلعب مع القطة... صف سهرة عائلية!) وكان لا بد أن تكون كل نسخة مختلفة عن الأخرى، قدر الإمكان، ثم أبيع تلك النسخ، يوم السبت صباحا، كل نسخة بعشرين سنتيما أو ما يقابلها عينا من بسكوي أو شكلاط أو جينة: الكتابة إذن أول حرفة مدرة للدخل مارسها طوعا في حياتي!

يستطيع أي شخص، والحال هذه، أن يتصور الجد الذي يجب أن يتوفر لدى من يمارس هذه الحرفة: لم يكن من مصلحتي، ولا مصلحة زبائني الأوفياء، المحيين لبضاعتي، أن يجد معلم الفرنسية ثغرة في هذه النسخ تسمح له بأن يثبت علينا تهمة " النقل " وبالتالي " الغش "؛ أذكر كلاما لمحمد ديب في رواية " الدار الكبيرة " يشبه مايلي: إن أفضلنا، أي التلاميذ، كان من يملك أكبر قدرة على ترتيب كذبه أو اختلاقه وكنت أملك الكثير من هذه القدرة على الاختلاق، ألا يقولون إن أعذب الشعر أكذبه؟ الخيال يغني وينجد إذا عومل بجدا!

الأغرب من هذا كله أن معلم الفرنسية، خاصة في المتوسط الأول، كان متواطئا معي: كان يعرف ما أفعله وعندما يقرأ، وهو يصحح، نسخة من تلك النسخ لم يكن يكف عن الابتسام؛ كأنه يقوم بالدعاية لسلمتي أو تراه كان سعيدا لأن العديد من تلامذته، في شخصي، ومقارنة مع تلاميذ الأقسام الأخرى، لم يكن يرتكب الكثير من الأخطاء اللغوية والإملائية: لقد اكتشفت أهمية الغاموس بالنسبة للكاتب وهذا كل ما في الأمر. سأعود إلى أدوات الكاتب: في هذه المرحلة لم أكن أحتاج سوى إلى القليل من الخيال والكثير من الانضباط والمثابرة، كل ليلة جمعة، وبعض الأوراق البيضاء وقلم جديد،

الميلودي شغموم

لا يخونني عند منتصف الليل، وما يكفي من الشطارة، صباح يوم السبت، ولا يهمني أين سأكتب، سواء كان ضوء شمعة في المراض أو ضوء القمر على سطح البيت!

2 - رسائل العشق:

لبنات منطقة الشاوية سحر خاص: رائحة الأرض هناك ونبته اللزاز التي توضع على الشعر، وزيت الزيتون، وطعم عشبة تغطت التي تغسل بها الملابس... كل شيء فيهن برائحة الأم، وطعمها، ودفئها، قبل أن تفسدها العطور الكيماوية الرخيصة من نوع "تابو" و "ريف دور"! الناس بلون ورائحة، وحتى سلامة، الأرض التي يعيشون فيها!

وكانت المدرسة التي قضيت بها سنوات الابتدائي الأولى تتكون من فصلين فقط، واحد للبنات وآخر للبنين، فصلين متجاورين، كل واحد له نوافذ كثيرة، كبيرة، مفتوحة على الآخر. أستحي الآن من ذكر كل ما كنا نقوم به في غفلة من معلمينا آنذاك لكنني كنت كثير الولوج وسريع الانفصال بفضل اكتشافني للشعر مبكرا عن طريق المحفوظات والدواوين البالية: لم يكن هذا الكلام المرصع أصعب، ولا أفضل، من الشعر الذي كنت أسمع، وأحفظه، من عائلة أمي التي كلما اجتمعت في مناسبة ما ضج البيت بالغناء والرقص ولا احتاجت، لإحياء فرح، إلى فرقة محترفة تتوب عنها: كانت تقوم بنفسها بكل ما يلزم المناسبة ثم تدخل حلبة الغناء والرقص والشطح بشكل يبهج و يجن طوال ساعات، ليلا، بالنسبة للرجال، ونهارا، فيما يخص النساء. وكانت أمي اسطورة على هذا المستوى، بارعة في ضبط الإيقاع والغناء، في "العد"!

إذن لم يكن الشعر بغريب عني، كان في دمي، وكان علي فقط أن أنظمه بالعربية الكلاسيكية، وليس الدارجة، والدليل على هذا، الدليل القاطع الذي ليس بعده دليل، هو الطريقة التي كانت البنات تتلقاهن بها مني: بنات ما زلن نصف بدويات يقال فيهن شعر بالعربية الكلاسيكية، لغة الكتب والمعلمين والمذيع، وبأسمائهن الخاصة، لم يسمعن قط كلمة مثل "أهواك" أو "يا فاتتي"، ولأول مرة يوصفن "بالريم" و"المهي" وبروائح وعذوية ورقة الأحيوان واليابسين، بكل تلك الأشياء التي لم أكن أنا نفسي أعرف كل معانيها، كنت فقط أحمئها، أنا الشاعر، أو أقرأها في دواوين، أو بقايا دواوين، بالية!

كبت الكثير من هذا "الشعر"، عشرات القصائد في عشرات البنات. لم أكتب غير الغزل والهجاء. أكتب الغزل للتقرب والهجاء للانفصال: كل معشوقة من معشوقاتي حينها كانت تستحق قصيدة هجاء لأبسط الأسباب كان أجدها مثلا تكلم طفلا آخر وهي تبتسم. لكن هذا "الشعر"، الذي أدمنت عليه آنذاك، مالبت أن أصبح سبب كساد علاقتي بالبنات: إذا تغزلت يقلن شاعر وإذا هجوت يقلن شاعر وأقصى صدمة عاطفية تلقيتها في حياتي يوم نظمت قصيدة، في بنت، وأنا في السابعة عشرة من عمري، وقرأتها عليها فسألنتني حائرة، بالرغم من أنني ذكرت اسمها في القصيدة أكثر من مرة: من أي كتاب نقلتها؟

كانت تلك آخر ضربة أتلقاها من "الشعر"، آخر علاقة لي ب "القصيدة"، مع أنني حصلت بفضلها على بعض الجوائز لا شك أن منها اهتمام بعض الفتيات وتقدير بعض الأساتذة ولكن أهمها أنني تدرت، ولمدة طويلة، على الكثير من أساليب الكتابة، فكم من القصائد قد قلدت أو أعدت كتابتها، سواء من وبالعربية أو الفرنسية، ما زال أثرها إلى الآن في نصوصي وما زال الحنين إلى تلك المرحلة يهزني، من حين لآخر، فأحاول أن أدمج بعضه في السرد: من لم يبدأ شاعرا، في الكتابة، كمن لم يعرف الثورة، أو على الأقل التمرد، في بداية حياته، سيظل ينقصه دائما بعد أساسي في تجربة الكتابة والحياة أو سيكون على الأقل كحرفي يخلو معمله من آلة من آلات عمله الضرورية!

3 - الجوائز:

التحقت بالمدرسة وأنا في الثامنة من عمري. ورغم أنني كنت موزعا بين الدراسة والعمل، ومساعدة أمي في تجارتها، فإني كنت من بين التلاميذ المتفوقين. لذلك حصلت على العديد من الجوائز. وكانت هذه الجوائز المدرسية تسلم في حفل كبير، كل آخر سنة، عبارة عن كتب بالعربية والفرنسية تنتظرها كما تنتظر لباس يوم العيد ثم نذهب محملين بها إلى بيوتنا كأننا نحمل كنوز سليمان. من هذه الكتب منجد الطلاب ومعجم لاروس ثم، في المتوسط الأول، قصة "سارة" لعباس محمود العقاد، بعد سلسلة عبقرياته، القصة التي قد أعود إليها فيما بعد، في مناسبة أخرى، لأنني أريد أن أركز

الميلودي شغموم

على الأثر الكبير الذي تركته في المعاجم والدور الذي لعبته و لا تزال في مساعدي على الكتابة وخاصة المعاجم المزدوجة اللغة. إن المعجم واحد من الأدوات الأساسية بالنسبة لكل كاتب كيفما كان الجنس الذي يكتب فيه فالمعجم يساعدنا على ضبط اللغة والإملاء ويسمح لنا بمراقبة دقة الكلمات التي نستعملها ويعطينا الكثير من المعلومات الملخصة التي قد نحتاج إليها ونحن نكتب. إنني إلى يومنا هذا ألجأ إلى المعجم لمعرفة كيف تكتب كلمة، أو لضبط معناها، أو إيجاد مرادف لها وأكثر من ذلك لترجمتها أو تعريبها: الكثير من المفردات، مثلا، أعرفها بالفرنسية، أو العكس، أو أعرفها بالدارجة، ولكني لا أعرفها في اللغة التي أكتب بها، أو تغيب عني لحظتها، فالتجئ إلى المعجم. وعلى سبيل المثال، فإني أعرف الألوان بالفرنسية أكثر مما أعرفها بالعربية وقد واجهتني مشاكل عديدة على هذا المستوى فقد اعترضتني مرة صعوبة في إيجاد مقابل لكلمة " موف " الفرنسية لأنني كنت في حاجة إليها، لضرورة تعبيرية، إذ كنت أعرف أنه له اللون المفضل عند بعض المصابين بانفصال الشخصية: هل أضع له، كمقابل في العربية، الخبازي أو القوي أو الحجري، الخ...؟ تطلب مني البحث أسبوعا كاملا، من التقصي واستشارة الأصدقاء، حتى حسمت الأمر باللجوء إلى الدارجة المغربية!

المعاجم العادية قد لا تتفح دائما فيتطلب الأمر الرجوع إلى الموسوعات المتخصصة: إذا احتجت إلى وصف دقيق لطبع ما من الطباع، أو توظيف أسطورة أو جانب منها، أو حادثة تاريخية، الخ... لا بد من العودة إلى موسوعة سيكولوجية، أو جامع للأسطورة أو مؤلف في التاريخ... إن الخيال الذي نستعمله في الإبداع الأدبي هو زادنا وعدتنا الكبرى ولكن الخيال يحتاج بدوره إلى زاد وعدة توجد خارجه وما أبلغ القول القديم " مقدمات علم في علم آخر " فالخيال لا يشتغل في الفراغ وبالفراغ ولكن، وفي ذات الوقت، ينبغي الاحتراس من إثقاله إلى أن يصبح في خدمة شيء آخر غير الأدب، أن يحرف الأدب ويحوه إلى شيء آخر. لهذا كتبت " الأبله والمنسية و يا سمين "، وكذلك، " نساء آل الرندي "، بدون العودة إلى مرجع تاريخي: إن الأديب قد يستعير من التاريخ روحه ولغته ليعيد كتابتها بروح ولغة الأدب!

وكان للمعاجم آنذاك سحر آخر: سحر الصور الكثيرة التي تزيناها وتغنيها بينما اليوم، وهي في قرص مدمج، أو على صفحة الويب، لم أعد أتوقف عند هذه الصور وأذهب مباشرة إلى ما أبحث عنه. وقد أطلب ما أريده مباشرة من محرك البحث. لقد ساهمت المعاجم الجميلة، والموسوعات، بالإضافة إلى المعلومات، في تربيته الجمالية، في تعليمنا حب الكتب الجميلة التي نحلم بتأليفها بدافع الولوج بالأدب: لقد كانت أي موسوعة أدبية موسوعة للتربية الجمالية كذلك!

4 - كتاب سوق الجوطية:

كان الاثنين هو يوم السوق الأسبوعي في ابن احمد لكن بعض التجار الكبار ينزلون سلعتهم يوم الأحد، زوالا في الغالب. وكنا نهرع إليهم لمساعدتهم على إنزالها مقابل ريبالات معدودة إلا أن هذه الريبالات كانت تكفيها لنفقاتنا القليلة فنحن لم نكن ندخن ولا نتعاطى آنذاك لبعض البلاوي. كل همومنا مركزها البطن والرأس والعضلات: نحب سندويتش النقائق، التي لم نكن نعرف من أي مواد تصنع ولكن رائحتها تجنن، وطعمها الحار جدا ما أذه، كما كنا نمارس الكثير من الرياضة، أكثرها عنيف، وقلة منا تحب الكتب والسينما.

كنت تجد في سوق البالي، أو الجوطية، كل أنواع السلع، بما فيها الكتب. وإذا كان المرء على بعض المعرفة بالكتب يستطيع أن يقتني منها النفائس.

بفضل عمل يوم الأحد، وحتى الاثنين أحيانا، مع الباعة، استطعت أن أقرأ جملة من القصص المصورة، والروايات، و المجلات، وغير قليل من الكتب العلمية والدينية . واكتشفت بالصدفة، في إحدى المجلات، طريقة منهجية للقراءة المفيدة!

الكتاب، في أيامنا، أهم وسيلة لاكتساب المعارف ولكنه كذلك فرصة للتفكير، والحوار، والانفعال، والتواصل. لهذا نحتاج إلى قراءة الكتاب الواحد، أحيانا كثيرة، أكثر من مرة، على الأقل مرتين: مرة للاكتشاف ومرة للتفكير أو الانفعال. ولقد تعلمت، من سوق القديم، وبالذات، كما قلت، من مقال في إحدى المجلات البالية، وأظنها أمريكية كانت تترجم إلى الفرنسية، تعلمت أن القراءة المفيدة تحتاج دائما إلى قلم وورق، ومن الأفضل مفكرة للقراءة: تسجل ما يبدو لك مهما، تلخص، تعلق، تقارن وتحاكم لا أن تتلغ، بدون هضم، أو تقرأ وأنت نائم: القراءة عمل جاد جدا، عمل خطير، طقس الاعتكاف، و يحتاج إلى أدوات عمل هي الكراس والقلم والعقل اليقظ أو القلب الحي. وبمجرد ما

عمل الكاتب، الكاتب يعمل

الميلودي شغموم

تمارس القراءة بهذا الشكل، وتتقدم فيها، يصبح لك رأي وتقدر على مواجهة الكتاب ندا للند وقد تصير كاتباً بدورك!

نحن نتعلم، في الحالات السليمة، كيف نفكر، ونفعل، مع الكتب إلى أن نتعلم التفكير المستقل بدورنا. ومن لا يقرأ، بطريقة شبيهة بهذه، يضع وقته في القراءة، ولن يستطيع أن يفكر بدوره أو يكتب شيئاً يستحق الاهتمام. لقد قيل أن ثلاثة أرباع الكاتب من غيره. وقيل أن النص نتاج نصوص أخرى. وأنا أفهم هذا الأمر على أنه يعني ما أشرت إليه، أي أننا نتعلم التفكير والحوار والانفعال مع الكتاب الآخرين كما نتعلم منهم روح وتقنيات الجنس الذي نبدع فيه وإلا ما أبدعنا مثلهم ولا جددنا أو أضفنا شيئاً إلى ما أنجزوه ولو بقينا نستسخمهم أو ننههم طول العمر. تلك سنة في كل عمل حقيقي: تتعلم لتعلم إذ اجتهدت واستطعت! ولهذا كنت أمارس القراءة بهذا الشكل حتى أن صفحات الكتب التي قرأت وقتها كانت، أحياناً كثيرة، تختلط بما أخطه فيها عندما تمتلي كل هوامشها بتعليقاتي ومقارناتي وتلخيصاتي التي قد أجد أغلبها الآن ساذجا أو متعالما، متحذلقا، ولكني مدين لهذا العمل بالجزء الكبير مما حصلت وكتبت!

5 - التعليم كوسيلة للتعلم:

من حسنات التدريس أنه من أفضل طرق التعلم فالمعلم مضطر إلى تحضير دروسه، أي إلى العودة إلى المراجع، وإلى شرح هذه الدروس بطريقة بداعوجية معينة، أي إلى التفكير فيما يقدمه إلى تلامذته، وإلى مشاركتهم والاستماع إلى أسئلتهم وملاحظاتهم، إذن إلى التحوار معهم والمراجعة المستمرة لما يتعلمون ومراقبة الكيفية التي يتعلمون بها. المعلم بهذا المعنى كاتب يضع دائما أمام عينيه قارئاً محتملاً ولا يستطيع أن ينجح في عمله بدون مراعاة متطلبات وإمكانات هذا القارئ: يتقدم معه في المعرفة خطوة خطوة، مرحلة مرحلة، كأنه يؤلف رواية ينظمها فصلا فصلا ولا يكتبها ناقصة أو فضفاضة!

ثم إن المعلم، في وقتنا على الأقل، كان متابعا بشهادات مهنية ينبغي أن يقرأ لها: مهنة التدريس إذن تدريب مستمر على القراءة الممنهجة وليس هناك معلم ناجح في عمله بإمكانه أن يتوقف عن القراءة والتحصيل وإذا ما حدث هذا فإن أغلبهم يلتجئ إلى التسيير الإداري أو التربوي، بغير الحرفة. المعلم قبل كل شيء متعلم أبدي، تلميذ لا يتخلف عن فصل القراءة. لذلك يكمن داخل كل معلم مؤلف محتمل قد يتحقق وقد يظل ضمنا. وفي هذه الحالة تحريض متواصل على الكتابة. هكذا أفهم الآن تلك المرحلة التي قضيتها في التعليم الابتدائي: لقد قرأت الكثير الذي حرضني على الكتابة! ومن ناحية أخرى ينشأ لدى المعلم الحقيقي نوع من الطموح يتم تحقيقه من خلال أحد النماذج الثلاثة: الإداري، مدير مدرسة مثلا، أو أكثر، و التربوي، كالمفتش، أو الباحث، صورة أستاذ جامعي. وبظل يكبر هذا الطموح في ذات المعلم، الحقيقي، أكرر، إلى أن يجد طريقه إلى الواقع في مرحلة من العمر. تلك المكافأة الذاتية التي يقدمها المعلم القارئ، الطموح، إلى نفسه!

ولقد رسمت لنفسي طريقا كهذا وصرت فيه إلى نهايته: حصلت على البكالوريا، سنة 1971، ثم سجلت بالكلية، شعبة الفلسفة، والتحقت بالمركز التربوي لتكوين أساتذة السلك الأول، ثم التحقت بكلية آداب مكناس لما حصلت على دبلوم الدراسات العليا وبها ناقشت دكتوراه الدولة ومنها تقاعدت، في إطار المغادرة الطوعية، أستاذا للتعليم العالي.

هذه المسيرة لا اختلف فيها كثيرا عن غيري، من أبناء جيلي والجيل الذي سبقنا، فقد كانت، كما أسلفت، واحدة من النماذج الثلاثة التي يتحقق من خلالها المعلم القارئ في ذلك الوقت. المهم فيها أي التفات، بعد أن نجحت في السنة الأولى فلسفة، أي قد أضيع ثاني مصدر للمعرفة بالنسبة إلي: اللغة الفرنسية، فالاستعانة بلغة أجنبية متطورة ليس فقط مصدرا آخر للمعرفة ولكنه قد يحسن لغة الكتابة ذاتها!

لذلك اجتزت مباراة الدخول إلى المركز التربوي، بالحي الحسن بالدار البيضاء لأقضي فيه سنتين، متوازيتين مع السنة الثانية والثالثة فلسفة. وقد حالفتي الحظ فوجدت هناك ثلاثة من كبار الأساتذة على رأسهم جورج دانييل المعروف بأطروحته حول "الأسلوب عند ديدرو" الذي كنت ألتقي به، أكثر من مرة في الأسبوع، خارج المركز، تناقش الأفكار والمؤلفات. هكذا وجدته، في تلك المرحلة، أعيد قراءة الأدب الفرنسي، من فواتير وماليرب إلى الرواية الجديدة، ليس لأنه كان ضمن المقرر، ولكن لأن جورج دانييل يعرفه بدقة ويهتم فيه بالأسلوب اهتماما كبيرا، كما يهتم بالأفكار، فكان لا بد أن أناقش معه من هذه الناحية!

الميلودي شغموم

هكذا بدأت أتعلم، من جديد، مبادئ الأسلوب عند كل كاتب والطريقة المميزة التي يكتب بها. لم يعد يهمني، من أي كاتب، خاصة في الرواية، سوى الأسلوب، تلك الطريقة التي يكتب بها والتي تميزه عن غيره وتجعله يستيقظ كل ما حصله من تجارب أدبية، أو حياتية، ثم يعيد تصريفها في مؤلفاته بشكل خاص، فريد، لا يشاركه فيه، ولا يضاهيه، أحد. لقد أصبحت أبحث عن سر الإبداع، عن روحه، وتشكلاته عند مختلف الكتاب: لن أصبح كاتباً إذا لم يتحقق في هذا السر وقد انضم إلى كوكبة الكتيبة ولكني لن أنال شيئاً من شرف الإبداع؛ أصعب الأحلام، لزوم ما لا يلزم، لكنه شرط كل الأحلام ويفضله تكتب أو تتوقف عند بداية، أو منتصف، الطريق، تموت!

6 - الفلسفة والأدب:

خرجت الفلسفة من رحم الأدب، أي من الأسطورة، التي كانت تكون الشكل الوحيد، ولكن الشامل، للثقافة، فهل تستطيع الفلسفة أن تتخلص من الأدب، وبالخصوص من الأسطورة؟ سيظهر عند اليونان، ولأول مرة، في تاريخ الفكر، شعراء يولفون الأساطير، أعني الأساطير الشخصية، بدل الأساطير الجماعية، التي كانت سائدة آنذاك في مختلف الثقافات. وسقراط المعلم الأول، الذي، كما يقول مـرلو - بوتني، يتعرف جميع الفلاسفة على أنفسهم في شخصه، لم يكن يتفلسف بغير المايوتيقا، أي الحوار المولد، والأيرونيا، أو التهكم حتى وصف بالساحر. أما مؤسس أول نسق فلسفي، أفلاطون، فقد كان يريد في بداية شبابه أن يصبح كاتباً مسرحياً وكل محاوراته تقوم على الحوار المسرحي، بل هناك من يجد فيها كل مقومات الأدب!

إن من يقرأ نصاً فلسفياً، وليكن مثلاً " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، لابن رشد، سيسحره ليس فقط كم العقل فيه ولكن كذلك جمال اللغة وقوة الأسلوب. وجميع النصوص الفلسفية، حتى تلك التي نقرأها مترجمة، ولكن ترجمة جيدة، تمتاز بهذه الخاصية: كانت، هجل، نيتشه، ديكارت، باشلار، الخ... إن باشلار المتخيل هو باشلار فلسفة العلوم... وما هو كم الفكر وكم الأدب عند شاعر كأي العلاء المعري؟

لكي نتقل من الكتابة الفلسفية إلى الكتابة الأدبية، وإلى الفن عموماً، ينبغي أن نفسح حيزاً كبيراً للجسد. والعكس صحيح كذلك. لهذا يمكن لنص أدبي أن يكون فلسفياً بقدر كبير ولا يكون النص الفلسفي أدبياً إلا بقدر قليل. من هذه الزاوية أفهم وصف نيتشه للجسد بـ "العقل الكبير" و للوعي بـ "العقل الصغير". وكان هذا الوصف سيكون أبلغ لو استبدل الفيلسوف "العقل" بـ "الفكر"!

إن الذين يتحدثون عن "الواقع" ينسون دائماً أنه موجود في اللغة، أنه مكتوب. الواقع الأدبي في لغة الأدب. واقع العلم في لغة العلم، الخ... وأن كل اللغات تكتسب، منذ الولادة، بالجسد، وتعمل بهذا "الفكر الكبير" ولكنها في الأدب، والفن، أوفر فيبدو الأدب مجرد لغة، لهو أو عبث باللغة كما يبدو النحت أو الرسم مجرد مادة، المادة التي يصنع منها ويستمد منها الصيرورة و العمق: هذا هو شأن الأدب الخالي من الفكر!

هذا التصور، الذي لا علاقة له بالاسمية، يتضمن صورة أخرى: كيف نعيش يوماً بين الفكر الصغير والفكر الكبير، في جدل، في ذهاب وإياب، بين الأثر والحضور، بين الثنايا والحدود، بدون انفصام إلا في ما ندر، إلا في المرض مثلاً؟

لنستبدل "الجسد" بـ "الوجدان" ونحافظ على العقل: في الأدب الكثير من الفكر، الذي يشيد بنية النص ويسير منطقاً، إضافة إلى منطق الجسد، أو الحياة، ولكن بالاشتغال على مواد الوجدان، بينما في الفلسفة الكثير من الوجدان الذي يتحكم فيه العقل، العقل الصوري، أو الشكلي ولا يمكن لأي نص أدبي، أو فلسفي، أن يخلو من هذا وذاك. لنراجع أمهات النصوص ليس فقط الفلسفية ولكن الأدبية، وخاصة في الرواية: تولستوي، هرمان هسه، دوريس ليسنج، دوستويفسكي، الرواية اليابانية، الخ...

وعلى كل حال لقد تعلمت من أمثال هؤلاء أن الأدب الخالي من البعد الفكري أدب فقير فقر الحياة الخالية من الجمع، حسب المناسبات والأحوال، بين الجسد والعقل، وقد ينحو منحى المرض الذي يتغلب فيه الجسد، أو الوجدان، كلياً على الباقي. لذلك أعجبت بفلاسفة مثل أفلاطون، وباشلار، وسارتر، بأدباء مثل هرمان هسه، أولئك الذين أجد عندهم العقل والوجدان!

ثم إن الحوار، الوظيفي، وليس السطحي، في النص الأدبي، ذلك الحوار الذي لا يمكنك أن تزله من النص بدون قتله، أو تشويهه، شئ لازم للأدب كما هو لازم للفلسفة، بصور أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للتهكم، إنه يولد، ويغني، وغيابه، أو عدم إثقانه، قد لا يعطي سوى تراجيديات مزيفة!

عمل الكاتب، الكاتب يعمل

الميلودي شغموم

فلا غرابة والحال هذه أن أعتبر الرواية مجرد أسطورة: إننا بنينا فيها أساطير وقتنا، ولم يعد فيها الأبطال آلهة أو أنصاف آلهة، لم يعودوا أبطالاً ممدنين، أصبحوا أناساً عاديين، مثل أي بورجوازي، أو عامل، أو فلاح، أو موظف، أو تاجر، ممن نسبيهم الطبقة الوسطى، وممن نسبيهم الطبقة العاملة، سواء اشتغلوا بالعقل أو الجسد، نساء وأطفالاً ورجالا، " أبطال من زمننا" يصارعون من أجل تحقيق إنسانيتهم!

7- معمل الكاتب:

الكاتب، من ناحية شكل شغله، عامل، ما في هذا شك. إنه مثل النحلة العاملة، مثل عامل البناء، يبني جزءاً جزءاً، طوية طوية. والكاتب، من حيث وقت العمل، أو المزاج، ثلاثة تقريباً: الصباحي، والزوالي، والليلي. ولكن كل واحد من هذه النماذج الثلاثة يدخل إلى معمله، ويغادره، في أوقات معلومة ومنتظمة. والفرق الكبير، والوحيد ربما، بين الكاتب والعامل البسيط هو أن الأول دائماً في حالة كتابة، حتى وهو خارج معمله: عمل اليوم يهياً من قبل، قبل اليوم، البارحة مثلاً. لا ياتي الكاتب إلى معمله منتظراً الأوامر والتوجيهات أو ليكرر نفس الذي قام به بالأمس كما أنه لا يجلس لينتظر الإلهام أمام صفحة بيضاء ورأس فارغة. للكتابة بداية خارج الكتابة: القراءة، والتأمل، ومشاكل الحياة، الخ... وعندما يجلس الكاتب ليشعر في عمله، كبداية رواية مثلاً، تأخذ البداية معنى الشروع في الإنجاز. وعندما يستأنف عمله الجديد في اليوم التالي فإنه يكون على معرفة بما سيفعله لأنه لا يترك عمل اليوم إلا إذا عرف من أين سيتابعه في الغد. ولنفرض أنه صباحي مثلي فإنه قبل أن يغادر الفراش يكون قد بدأ يستعد لهذه العملية ثم يتباطأ في شرب القهوة والدخول إلى الحمام أو يخرج لممارسة رياضة تكون طريقة أخرى للاستعداد من أجل الجلوس لبداية شيء أو متابعتها ثم يجلس إلى مكتبه ولا يغادره إلا إذا كان يعرف من أين سيستأنفه فيما بعد!

ولكن ماذا تعني كلمة " معمل " أو "مكتب" إذا كنا لا نتكلم عن كاتب مصنف، ومكرس، ضمن خانة الكتاب المحترفين، وخاصة تلك الغلة منهم التي تستطيع أن تعيش من الكتابة، أو لها ريع، على عكس أولئك الذين يضطرون إلى ممارسة مهنة أخرى، قد تكون صعبة وملتهمة، ليعيشوا ويعيلوا أسرة؟ إن روح العمل، وشروطه، واحدة، سواء عند المحترفين أو عند الهواة، ولا فرق بينهما، من هذه الناحية، سوى من حيث المدة التي يقضيها كل واحد منهما في عمله: المحترف يفرض على نفسه وقتاً أطول والهاوي لا بد أن يتدبر أمره بهذا الشأن. كيف؟ من أين له بمكتب كمكتب المحترف؟ وشروط الحياة، والعمل، المادية والمعنوية، التي يتوفر عليها المحترف؟ أولاً، لا ينبغي أن ننسى أن هذا الذي أصبح محترفاً لم يكن كذلك دائماً، فقد يكون بدأ مثلنا أو أسوأ! ثانياً، ليس كل الكتاب المحترفين يعيشون في تلك الشروط التي تتوهم أنهم يعيشون فيها ويستمتعون بها: أحب أن أتذكر دائماً في هذا الصدد حياة بلزاك! ثالثاً، إن الذي ينتظر إلى أن تتحسن ظروفه ليشعر في الكتابة إما أنه ليس كاتباً حقيقياً وإما أنه كاتب حقيقي ولكن لن يكتب شيئاً في يوم من الأيام: في هذه الوضعية أذكر باستمرار حالة إرسكين كالدويل!

إن مكتب الكاتب، أو معمله، ليس سوى ركن صغير يستطيع كل واحد منا أن يحتله، في كل الظروف والأحوال: جزء من طاولة في مقهى، ركن صغير في بيت متواضع، مكان في حديقة عمومية، في مكتبة... ولنتذكر كم عدد الكتاب الكبار الذين لم يكن لهم سوى مثل هذا "المكتب" البسيط الذي يوفر امتيازات قد لا يكون أقلها ضرورة تنظيفه وترتيبه باستمرار! إنني لن أتعب من تكرار أسماء بعض المقاهي مثل " لاروطوند"، في الدار البيضاء، و "فلامنكو"، في الرباط، ولن أشقى على ما يبدو من هذا الحنين: لأكثر من عقدين، محاطاً بكرم أولئك الناس، في وقت بدأ شعار " ممنوع القراءة" يغزو الكثير من المقاهي، في هذا الوقت بالذات كتبت، في هذين المكانين، أغلب ما نشرت في السبعينيات والثمانينيات، حتى رسالتي الجامعتين، الأولى ب"لاروطوند" والثانية بال"فلامنكو"!

أهم شيء في مفهوم " المعمل " أو "المكتب"، بالنسبة للكاتب، هو أن يتعود على ركن ما، سواء كان فخماً أو بسيطاً، وأن يعود الناس عليه، سواء في البيت أو المقهى، وعندما يجلس هناك يكون في حالة عمل ويعرف الناس من حوله أنه يعمل ويرجى عدم إزعاجه. مع الوقت يرسخ هذا المفهوم في ذهن الكاتب ومحيطه ويصبح جزءاً من عاداته. وهكذا يترسخ شيء آخر ليس أقل أهمية: التفرغ في وقت معلوم، كل يوم، كل السنة أو خلال فترة منها، للكتابة. أنثذ يكتسب ذلك المفهوم معنى بيته

عمل الكاتب، الكاتب يعمل

الميلودي شغوموم

الخاص أو معبده الذي لا يدخله سواه وعندما يدخله هو فإنه يدخله ليقوم بأمر هام وليس ليلهو فيه أو يستريح!

بقيت أغلب الوقت أتردد على مكتبي بالمقهى والبيت إلى أن اقتتبت حاسوبا سنة 1998 كان الأولاد ينصرفون إلى مدارسهم طول النهار فأدخل إلى معلمي، بمكناس، لأشتغل إلى وقت الغذاء. وفي العطل، وأيام الامتحانات، أنقل حاسوبي إلى غرفة صغيرة بالرباط لأتابع العمل. كل ذلك لم يمنعني من متابعة مهنتي كمدرس. كنت أحاول أن تكون كل حصصي في الزوال لكي لا أنقطع عن عادة الكتابة والقراءة كل صباح. أكتب مدة أربعة أو ستة أشهر في السنة. فقط. وللكتابة، في هذه الحالة، معنيان: أولا، إذا نجحت في صياغة مسودة متماسكة، مقنعة، أقول لنفسي إنني بدأت أكتب بالفعل. ثانيا، أشتغل على تلك المسودة مدة قد تدوم أربع سنوات فأقول، عند الانتهاء من المراجعة، لنفسي إنني كتبت. أما قبل هاتين المرحلتين فأني أكون في حالة الإعداد للكتابة. لا غير.

8. محطات:

لكل مهنة صعوبات وأخطار، محطات، كما أن لها محفزات. لكننا نميل إلى ذكر الصعوبات والمشاكل أكثر من ذكر الحوافز. وليس في إمكان أي كاتب، ولا في إمكان أي إنسان آخر، أن يتوقع جميع الأخطار فهي مصائب قد لا نعرف دائما من أين ستأتي: مثلا، مجرد تأويل، خارج السياق، أو من خارج طبيعة الأدب، قد يعرضنا للتشهير أو المحاكمة أو التكر أو لحادثة. هذه أمور من طبيعة عملنا ويتعرض لمثلها الطبيب، وهو يحاول أن ينقذ حياة، وحتى المفتي في الشؤون الدينية، وهو يحاول أن يحل مشكلة مستعصية... كل ما نستطيعه تجاهها هو أن نقتنع بأنها قد تحل بنا وإن لم تحل بنا قد تصيب زميلا لنا وما علينا سوى الصبر والمواجهة!

غير أن الكاتب الحقيقي، وهو غير المتهور، أو المدعي، أو المتحذلق، عندما يواجه مثل هذه القضية يكون قد حظي ببعض الاعتراف أو بالكثير منه، أي تجاوز نسيبا أكبر إحباط يتهدد الكاتب: عدم الاعتراف!

ولعدم الاعتراف وجوه ومستويات كثيرة قد يبدأ بعضها من محيطه القريب فيتحذ أشكالا منها السخرية والاستتكار وقد يصل إلى درجة العنف خاصة عندما يأتي الواحد منا من وسط شعبي: يسخر منك أقرانك، وإخوانك، وقد يتهكم عليك معلموك، وكم من شاعر ترك الشعر بسبب زوجته أو أولاده، ناهيك عن أن يعنف عليك أبوك أو أمك لتترك هذا الأمر وتسعى إلى مهنة مضمونة الدخل، قليلة المخاطر...

لقد سبق أن ذكرت حكايتي مع البنت التي سألتني: من أي كتاب نقلت هذه القصيدة؟ وعندما فكرت في المغامرة بنشر مجموعتي القصصية الأولى علي حسابي نهائي عن ذلك أكثر من واحد: "بدل... اشتر ثلاجة!" أو "ادفع تسبيقا في سيارة!" أو... والعديد ممن رآها في كتاب بعد ذلك سخر مني ورفض حتى أن يأخذ منها نسخة بالمجان، موقعة مع الإهداء من طرف الكاتب الناشر! أما المكابذ من طرف بعض الزملاء في المهنة، وفي الكتابة، فينبغي أن يتوقع المرء ترايدها بحسب ترايد حضوره: وهات يا وشاية، وبا دعاية كاذبة، وقد يبادر زميل ليسحب كتابك من بين الكتب المرشحة لجائزة، وقد يعمل على تدمير مؤلفك من غير أن يقرأه، أو يكتفي فقط بنشر كلام من نوع "لقد انتهى وما عاد يكتب شيئا مهما منذ كتابه الأول..." وهو لم يقرأ لا الأول ولا الثاني! ومن ذلك كذلك خيبات الأمل التي تأتي من الناشرين ولجان القراءة وبعض المشتغلة عقولهم بالسماع، والنميمة، الخ... فهل تخلو مهنة من شيء من هذا أو من مثله؟

من وسط كل هذا الدخان، والعتمة، هناك دائما نور يرشد، و يحفز، بعضه من داخل الكاتب نفسه، الكاتب الذي يعرف شغله، وبعضه من أناس، منهم زملاء، يقدرون مجهودك أو يتهنون إلى تقديره مع الوقت، وقد يبدأ حينها محيطك في الاعتزاز بك!

ولكن حذار، وفي جميع الأحوال، من زهو الطاووس بنفسه: إن الكاتب يظل مبتدئا طول عمره حتى وهو في ذروة مجده!

لقد منحتني صورة الطاووس تلك، منذ قرأتها عند أبولينير، قدرة هامة على أن أظل داخل جلدي وألا أغرق غيري في ظلي!

عود على بدء

عمل الكاتب، الكاتب يعمل

الميلودي شغموم

والآن، ها قد تقاعدت، سنة 2005، من مهنتي الأولى، أي التدريس، بعد 39 سنة من الخدمة. فمالعمل؟ الواقع أنني أشعر كأنني لم أتقاعد لأنني أعرف، وكل يوم، ماذا سأفعل بصباحاتي سواء استيقظت باكرا أو متأخرا. وذلك بفضل مهنتي الثانية، أي الأدب. كل ما أتمناه، بعد هذا، هو أن أموت، إذا جاء أجلي، وأنا أشتغل، أمارس مهنتي الثانية، فقط، لا غير، بعد أن تخلصت من الإكراهات الزائدة في عملي الأول!